الشـــخصيات

يقول سومرست موم:

«إن الكاتب لا ينسخ نماذجه نسخاً من الحياة، ولكنه يقتبس منها ما هو بحاجة إليه. يضع ملامح استرعت انتباهه هنا. أو لفتة ذهنية أثارت خياله هناك. ومن ثم يأخذ في تشكيل شخصيته، ولا يعنيه أن تكون صورة طبق الأصل، بل ما يعنيه حقاً، هو أن يخلق وحدة منسجمة، محتملة الوجود، تتفق وأغراضه الخاصة[1].

ونجيب الكيلاني يصنع شخوصه من الواقع المحيط بنا والمألوف لدينا.. إنها نماذج نقابلها، بل نعاشرها أو نتعايش معها في كثير من الأحيان، ولكنه يشكلها بذكاء، ويختارها بوعي، لتحقق الوحدة المنسجمة، المحتملة الوجود (أو المتحققة الوجود بالفعل) كما يقول «سومرست موم».

وشخصيات الكيلاني في رواياته التي بين أيدينا، تزخر بالحياة في مجموعها، صحيح أن بعضها يندرج تحت ما يسمى الشخصيات الجاهزة، أو المسطحة، ولكننا نعثر على شخصية رئيسة على الأقل في كل رواية تقدم لنا معالمها من الداخل والخارج، في حياتها الخاصة والعامة، بحيث نراها بلا رتوش ولا أصباغ، تتفاعل مع الحياة في حال قوتها وحال ضعفها.. إنها شخصية بشرية بكل ما يعتري

---

(١) محمد يوسف نجم، فن القصة، ٩٣

الشخصية البشرية من تقلبات وتغيرات، ومد وجزر.. ليست شخصية «السوبر مان» على كل حال، وإنما شخصية الإنسان العادي الذي يفرح ويحزن، ويبتهج ويكتئب، يقوى إيمانه على مر الأيام، ويهتز هذا الإيمان في لحظات الضعف والتعب، وإن كان يعود لإيمانه أقوى من ذي قبل.

ويمكننا أن نعثر على عدد هائل من الشخصيات في روايات نجيب الكيلاني ذات ألوان متعددة ومشارب شتى.. رجالاً ونساءً وأطفالاً.. من الصالحين والطالحين.. والإيجابين والسلبيين.. والأخيار والأشرار، وسوف نحاول أن نركز الضوء على أهم هذه الشخصيات وملامحها، من خلال تصنيفها إلى مجموعات متشابهة في السلوك والقيم والأدوار، لنكتشف أهم هذه الشخصيات وملامحها، من خلال تصنيفها إلى مجموعات متشابهة في السلوك والقيم والأدوار، لنكتشف مدى اتساقها مع الأداء الروائي، ومدى انسجامها في التعبير عن رؤية الكاتب.

المجموعة الأولى (الشخصيات النقية):

تبدو شخصية عبد المتجلي، من أقوى الشخصيات الحية التي رسمها الكاتب، ولعل ذلك يرجع إلى معايشته لها على امتداد روايتين (اعترافات عبد لمتجلي، امرأة عبد المجلي)، حيث أطلعنا الكاتب على حقيقتها من الداخل،

وأرانا كيف تفكر، وكيف تستجيب للأحداث وتتفاعل معها سلباً أو إيجاباً، وعرّفنا معالم تكوينها الثقافي والاجتماعي، وكيف أثر هذا التكوين على توجياتها وانفعالاتها وآمالها وأحلامها. وطموحاتها.. ومن ثم؛ كانت غزارة المادة الإنسانية الحية التي طالعتنا على امتداد الروّايتين دون أن نشعر بملل أو سأم، بل كنا في غاية اللهفة لمتابعة هذه المادة لنعرف إلى أي مدى ستصل، وإلى أي مدى ستقوم هذا العالم المضطرم الذي تعيش فيه، وتصطلى بعذاباته وعنائه. إن عبد المتجلي شاب من غمار الشباب الكثيرين الذين يسمونهم «بَطَالَة مقّنعة»، فهو يعمل بمجلس القرية الموجود في بلدته «كفر أبو سالم»، وليس له غرفة أو مكتب أو كرسي يجلس عليه (حالة عامة في مجلس القرى بالدولة كلها) كما لا يعرف توصيفاً لوظيفته، أو ماذا تسمى؟، يحمل شهادة متوسطة (دبلوم ثاني صناعي قسم برادة ولحام)، ولكنه يعمل أحياناً في الأعمال الكتابية بالمجلس، ومنذ سنتين لم يدعه أحد لعمل شيء. وهو حريص على أن يدقق فيما يعمله، مما جعل رئيس المجلس يضيق به، وفضل ألا يستعين به في شيء، ولا يطالبه إلا بالتوقيع في دفتر الحضور والانصراف!.

يجسد عبد المتجلي مأساة الشباب من زملائه، فهم لا يعملون عملاً مجدياً، ويقبضون رواتبهم دون مقابل،

ويعانون من البطالة المقنعة. وليس عبد المتجلي وحده في هذه الحال، بل هناك مائة وخمسة موظفين مِثْلَهُ في المجلس لا يعلمون شيئاً، أما الذين يؤدون عملاً حقيقياً فإنهم يعدون على أصابع اليد الواحدة.

وفوق ذلك، فإن شخصية عبد المتجلي تجسد مأساة جيل بأكمله، ووطنٍ بأكمله، وتفكيره يتجاوز الألوف، ويكشف عن الفساد السائد، وإن كانت تستغرقه أحياناً القضايا الثانوية الهامشية، ويهمل القضايا الكبرى الرئيسية، فهو يهتم بالرشوة في وزارة الصناعة التي نشرت عنها الصحف، أكثر من اهتمامه بنقص مياه النيل التي تهدد المستقبل الزراعي في القرية، ولكنه يرى أن حلّ التناقضات لا يتم إلا بالبحث عند الجذور وتعمق الأسباب، ولعل ذلك يرجع إلى كونه مثقفاً وقارئاً يُدمِن القراءة، ويسعى أن يكون التقدم المادي قائماً في بلدة «كمبيوتر لكل مواطن»، وحين يقول له الحاج تهامي: «الرغيف أولاً» يرد عليه:

«هذه مقولة ساقطة.. نرددها دائما، فالرغيف موجود، والله لنحرمنا من الحد الأدنى لحياتنا الحيوانية.. والكمبيوتر لن يمدنا بالأرقام والمعلومات فحسب، ولكنه سيثمر خبزاً، وفاكهة، وشيكولاته أيضاً»[1].

---

(١) اعترافات عبد المتجلي. ٢٤.

وتبدو شخصية عبد المتجلي مثالية في تصوّراتها، حالمة في طموحاتها، وإن كان الواقع المرير يشدّه بعنف ويوقظه من أحلامه وتصوراته:

/يقول عبد المتجلي الذي لم تتح له فرصة التعليم في معاهد الأزهر:

«أموالنا حرام.. طعامنا حرام.. حياتنا نجاسة..»

أطلقوا عليه بالأمس «عبد المتجلي» المجذوب![1].

تبدو من هذا المنطلق مثاليته المطلقة، ورفضة الكامل للواقع، ومن ثم جاءت فكرة بحثه عن «الون»، كأنها جاءت أو صدرت عن مجنون، لا يعرف اليأس بسهولة، بالرغم من تحالفه مع الفشل ألف مرة، فأصبح حليف النكسات والهزائم.. وإن كان يمكن القول إنه رمز للصمود والتصدي، فهو يتصدى للعمدة الذي يفرض إتاوات على الفلاحين، ولكنه ينهزم أمامه، كما تعرض لمساءلات قانونية كادت تؤدي به إلى السجن عندما عجز عن إثبات وجود اختلاسات في ميزانية المجلس، أيضاً أوسعوه ضرباً على قدميه بالفلقة في المركز عند تصديه للإدارة المماثلة لتجريف الأرض الزراعية في كفر أبو سالم.. ولكنها المرة

---

(١) السابق. ٩.

الوحيدة التي نجح فيها مما أجبر تجار الطين والتجريف إلى الانتقال إلى قرى مجاورة.

إن الواقع المرير والإحباطات العديدة التي يعانيها تجنح به في كثير من الأحيان إلى نوبات من اليأس والحزن، كما تتزعزع لديه قصور القيم والأحلام التي يبنيها في خياله حتى توشك على الانهيار.. ولكنها تقاوم في استماتة حرصاً على الحلم والحرية.

ويتذكر عبد المتجلي أن أعداء الشعب الحقيقيين هم اللصوص والمستغلون وحملة السياط. والحرية والعدالة والعلم والعمل أسس الخروج من المأزق. وهي قضايا يؤمن بها أي إنسان طبيعي حرّ على وجه الأرض[1].

إن الضعف الإنساني من خصائص شخصية عبد المتجلي المحورية، فهو ليس (السوبر مان) الذي لا ينهزم والذي لا يخطئ ولكنه يتعرض لكثير من الهزائم والأخطاء ومع ذلك يواجهها بصبر وإرادة.. يتألم ويأسى لكن الإصرار ينسيه لألم والأسى، وبالرغم من كل شيء، يحلم ويواصل الحلم، ولا شك أن التصور الإسلامي كان من وراء صموده.

«.. كان يتأرجح بين الشك واليقين، بين المثالية التي

---

(١) امرأة عبد المتجلي، ١١٢، وبما بعدها.

يحلم بها، والواقعية التي تهمين على السوق، كان عبد المتجلي يتمنى أن يوجد في هذا العصر رجل كعثمان بن عفان

يتبرع بحمولة ألف بعير للجائعين والمحتاجين كما حدث في التاريخ، لكن العصر ليس عصر الصحابة، ولكنه عصر الذئاب الجائعة التي تنهش لحوم الأحياء والأموات على حد سواء..»[1].

وبعد ذلك وقبله، فإن «عبد المتجلي» إنسان عادي مثل بقية الناس، يتزوج وينجب ويختلف مع زوجته ويصل الخلاف إلى حدّ الطلاق ثم المصالحة، ويجد في حياة الرضاء متعة تختلف عن قسوة حياة الفقر، ويحمل هموم أمه، ويسعى لتزويج أخته..

إن عبد المتجلي نموذج حيّ للشخصية الروائية المتنامية التي تحلم نبض الإنسان ومشاعره وأشواقه في الحرية والعدل والتقدم والطهارة.

على العكس من شخصية «عبد المتجلي»، نجد شخصية الشيخ «محمد أحمد حسب الله» في رواية «ملكة العنب» فهو شخصي جاهزة إلى حدٍ ما، لم يتوغل المؤلف في أعماقها، وإن كان قد قدمه إلينا شاباً مستقيماً يواجه

---

(١) السابق، ١٠١.

الواقع بصبابة وإرادة.. صحيح أننا قد نعثر على بعض المواقف التي يكشف فيها المؤلف عن داخل الشيخ محمد مثل رغبته في الزواج من «براعم»، ولكنه يجعل منه شخصية مثالية قد تتأبى على الألم في مواقف الألم، مثلما رأيناه عند تعذيبه من قبل الجلادين، فإنه يغالب الآه والصراخ، بل إننا نراه يجري على ساقه أو قدمه لموجوعة منذ زمان، وكأن التعذيب منحة لا محنة.

والشيخ محمد يمثل صورة عالم الدين المثلى، فمع أنه شاب في الثلاثين، أسمر وسيم، فإنه لا يرفع عينيه عن الأرض إلا بقدر الضرورة. يطلقون عليه «الرجل الصالح». وهو عدو لدود للكذب والنفاق والظلم والتعالم. مهنته الأصلية التدريس، ولكنه يصلي بالناس ويخطب الجمعة. كافح بعد وفاة والده الفقير حتى حصل على الشهادة العالية.. ومن منطلق وعيه الإسلامي يثير في خطبته قضية «زكاة العنب» الذي يزرعه الفلاحون بدلاً من الحبوب، فيسود اللغط والجدل، حول مشروعية هذه الزكاة، فيندفع بعض الفقراء إلى القول:

«- إذا لم نأخذ حقنا بالشرع، فسوف نأخذه بالقوة»[1].

---

(١) ملكة العنب، ٦/٥.

ولا يأبه الشيخ «محمد حسب الله» بتهديدات أصحاب العنب ممثلين في «براعم» أو ملكة العنب، التي تواجهه بالغضب والحنق والاتهام بإثارة الفتنة، فير عليها واثقاً: «- إن علم الدين لا يأخذ إذناً من أحد حينما يريد أن يقول الحق.. وفي حديث أبي ذر، أوصاني خليلي أن أقول الحق ولو كان مراً»[١].

ثم يفهمها الشيخ محمد أن المنبر «ليس بوقاً من أبواق الحكومة، ولكنه مكان طاهر تنطلق منه كلمات الله»[٢].

إنّ الإرادة الصلبة التي تتميز بها شخصية الشيخ محمد حسب الله، كانت وراء الكثير من المتاعب التي جرّها على نفسه وقريته منذ فجرّ قضية زكاة العنب حتى وقوعه تحت سياط الجلادين، مروراً بوقوفه وحده بجوار جثة قريبه الذي قتله العراقيون، عند تشييع جنازته، وبعد تدخل قوات الأمن لتفريق المشيعين!.

ولعل هذا الموقف المثالي الذي وقفه الشيخ محمد حسب الله، دون أن نرى أعماقه الوجدانية وأطواره النفسية، يعود إلى طبيعة عمله إماماً وخطيباً، ولعل المؤلف أراد أن يجنب «عالم الدين» الذي يمثله الشيخ محمد حالات

---

(١) السابق، ٩.
(٢) نفسه، ١٠.

الضعف الإنساني التي تعتري غيره من الناس، فجاء على تلك الصورة المضيئة المشعة، حتى في حالات القهر والقمع.

وهناك شخصية قريبة من شخصية الشيخ محمد، تبدو أكثر بساطة وأقوى تأثيراً، وهي شخصية «أبو المجد شاهين» ذلك الفلاح الشيخ، الذي يتصف بالزهد والورع، ويتعامل مع الأحداث ببساطة ويسر، وإن كان ينحاز دائماً للإسلام وما يمثله من حق وعدل وطهارة، وهو يمثل صورة الفلاح المسلم في غير غلو أو تنطع، مما يمكن أن نعدّه رمزاً للدعوة الخالصة إلى تطبيق الشريعة، والعودة إلى روح الإسلام، فهو يرى أن عدم احترام الشرع وضعف الإيمان وراء استباحة كل شيء: السرقة، الزنا، القتل، شهادة الزور، الرشوه...[1].

ومع بساطة أبو المجد شاهين، وطيبته الفطرية، فإنه يقاوم بإيمانه وصبره سياط الجلادين، بل إن وعيه يتجاوز الحاضر إلى المستقبل يؤثر في جلاديه الذين يكفون عن تعذيبه، ويعملون على إخراجه من الحبس، بعد أن أثر عليهم بأقواله وتصرفاته!!.

إنّ شخصية «أبو المجد» تبدو أقرب إلى المثالية، ولكن بساطتها وعفويتها في التعامل، وتأثيرها الفطري على

(١) نفسه، ٢٧.

الناس، يجعلها حيّة وفاعلة، بل تحفر لنفسها مكاناً في ذاكرة من يقرأ الرواية.

أيضاً، هناك شخصية الطالب الشاب «شعبان عبد اللطيف»، وهو أزهري من طلاب أصول الدين ويعمل على نشر الدين الصحيح، ويأخذ مواقف واضحة من الفساد والواقع الاجتماعي. ويعلن رأيه في الأحداث والأشخاص، مثل رأيه في اللواء الشريجي زوج «عنايات هانم».

إن اللواء الشريجي باشا رجل فاسد فاسق، وأنه كان على علاقة مع يهودية، كما كان على صلة وثيقة بالانكليز، وقدم لهم الكثير من المعلومات عن حركة المقاومة..»[1].

و«شعبان عبد اللطيف» مثله مثل كثير من الشباب المرتبط بالدين ارتباطاً وثيقاً، ويتوق إلى تطبيق الشريعة والدفاع عنها، ويضحي في سبيلها إلى أخر مدى.. ولكنه مرسوم فنياً من الخارج، ولعل ذلك يرجع إلى كونه شخصية ثانوية.

وإذا عددنا الشخصيات السابقة نماذج للتدين الإيجابي - أو الحركة الاجتماعية وفق وعي ناضج بالإسلام وتصوراته، مع تفاوت في بنائها الفني ونوعيتها؛

---

(١) قضية أبو لفتوح الشرقاوي، ٣٠.

فإن هناك نماذج لما يمكن أن نسميه بالتدين السلبي أو الزهد الذي يعتزل الحياة والواقع، وإن كان يحتفظ في قرارة أعماقه بنقاء السريرة وصفاء الفطرة، وقد يصنع منه الكاتب رمزاً للنجاة، أو يجري على لسانه ما يعد طريقاً للنجاة.. ويلجأ إليه بطل الرواية ليجد عنده حلاً ينقذه من الحيرة والتخبط، كما نرى عند شيخ الخلوة في مسجد السيدة زينب الذي سيلجأ إليه المتجلي كلما ادلهمت أمامه الدنيا:

«أين أتجه؟.

- وهل هناك سواه؟.

وهكذا يمضي الحوار الذي يعيد عبد المتجلي إلى صوابه، حيث يذكره بالعودة إلى الأم- ولعلها مصر، أو هي كذلك بالتأكيد - ويشير إليها بقوله: «في أحضانها الحب والزرع الأخضر والأمن والسلام»[1].

أو يذكره بتلك العبارة: «ليس في بلادنا من يموت جوعاً»[2].

وإذا كان شيخ الخلوة، الذي يتسم بالمهابة والنورانية والصفاء، لا تظهر من ملامحه وصفاته ومعالمه في المعترك

---

(١) امرأة عبد المتجلي، ٥٠.
(٢) السابق، ٥٤.

الإجتماعي اليومي أية آثار أو انفعالات، فإن أهل التدين السلبي تظهر مواقفهم جليّة من المجتمع فالدراويش في أذكارهم ومدائحهم يستمعون لشيخهم المداح، وهو يشرح لهم معنى قوله تعالى « **عليكم أنفسكم** »[١]، ويتلخص من الذكر والجد في تحصيل الرزق ورعاية العيال والإحسان إلى الجار، وعدم الانشغال بأمور السياسة ومشاغل الدنيا التي يزينها الشيطان[٢].

وعندما تتوارد أنباء الفضيحة الخاصة باللواء الشريجي وزوجته الشابة، ينزعج الشيخ المداح انزعاجاً شديداً، لأن ما يجري ببساطة شديدة صرف الناس عن ذكر الله. إنه ضرب من اللهو في رأيه، ويكاد يصرفهم عن تحصيل الرزق، ورعاية أسرهم، وكان الذي يضايقه أكثر أن رواد المساجد في القرية لا يكفون عن الحديث في أمر الفضيحة[٣].

إذاً فالشيخ المداح لا يريد تجاوز الاهتمام بالذكر والرزق، وهو ما يعني أن يعيش الناس بعيداً عما يجري سواء كان له علاقة بواقعه ومستقبلهم أو لم تكن له علاقة، مما يعني أن الإسلام من وجهة نظره قاصر على العبارات فحسب.. وبالرغم من هذا المفهوم القاصر، فإن للرجل حضوراً وتأثيراً

---

(١) سورة المائدة، ١٠٥.
(٢) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ٣٩.
(٣) السابق، ٤٦.

على أفئدة الناس، فقد كانت وفاته بالأراضي المقدسة، ودفنه بالبقيع، ذات صدى عميق في نفوس أهل القرية، وقد وصفوه بأنه «الصوت الصادق في قريتنا».[١]. ولعل هذه السلبية تجد تعليلاً معقولاً إذا استمعنا لمقولته التي وردت على لسانه قبل سفره إلى الحج حين رأى المجتمع والعصر لا يمثلا ما يبغي أو ما يريده الإسلام:

«هذا عصر الضلال.. وبنوه ضالون ومضلون.. لم يعد أحد يعرف الصدق من الكذب.. ولا الوهم من الحقيقة.. إنهم يصنعون المواقف.. وكل شيء على هواهم.. والناس ضائعون[٢].

وإذا كان انحراف الناس تعليلاً معقولاً للانسحاب من الواقع، فإنه من ناحية أخرى يحتم على العلماء والشيوخ أن يقوموا بدورهم في الاصلاح والتصدي للأمراض الاجتماعية.. ولكن نمط الشخصية السلبية موجودة وقائمة في المجتمع.. وكأن الكاتب أراد أن يقول لقرائه: هاكم النمط السلبي في مقابل النمط الإيجابي.. فوازنوا واختاروا.

ثمة شخصية يمكن إلحاقها بشخصيات هذه المجموعة. إنها شخصية متحولة انتقلت من عالم الضياع والضلال، وكانت ضحية لقهرٍ لم تتوقعه، إلى عالم

---

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاي ١١٤.
(٢) السابق ٨٨.

السكينة والسلام والهدى.. إنها شخصية «أبو الفتوح الشرقاوي» الذي حملت الرواية اسمه.. فقد كان لصاً يهوى الكذب، وبدأ يجلب على نفسه المتاعب بادعائه أنه رأى جثة القتيلة المزعومة «عنايات هانم» زوجة اللواء الشويجي، وتطور هذا الادعاء على يد الشرطة نتيجة

للتعذيب إلى اعتراف تفصيلي كاذب بأنه هو الذي خنق عنايات البحيري، وتقاضى مقابل ذلك مئة جنيه عداً ونقداً[1]، ولكنه لا يعرف أين ذهبوا بالجثة ولا الأشخاص الذين كلفوه بالمهمة ودفعوا له الثمن، ثم تتطور المسألة إلى ملابسات يدفع أبو الفتوح ثمناً لها معاناة وتعذيباً إلى أن تتحول قضيته إلى قضية عامة تشغل المجتمع كله؛ الدولة، والأحزاب، والصحافة، وعامة الناس، وخاصة بعد الإفراج عنه، حيث تبدأ حياته في التحول، والانتقال إلى التدين والتزام الطريق المستقيم سلوكاً وأخلاقاً.

بيد أننا نكتشف على مدى الرواية تعليلاً لإدمانه الكذب سبب مصائبه ومشكلاته، وهو المعاملة السيئة من جانب زوج أبيه وهو صغير، فقد ضربته ضرباً مبرحاً بسبب قطعة لحم، فلم يجد مخرجاً إلا الزعم بأن القطة

---

(١) مئة جنيه في ذلك الزمان تساوي مبلغاً هائلاً في زماننا، وكان من الممكن أن تكون ثمناً لعدة أفندة، أي ما يساوي عشرات الألوف بسعر اليوم.

هي التي أكلتها، وسار على هذا المنوال في أشياء أخرى.. ومن وجهة نظره، فإن الكذب سمة عامة للمجتمع.. البضائع كلها مسعّرة، ولكن أحداً لا يطبق التسعيرة ولا يبيع بها، وأكبر سلعة اليوم هي الكلام في الجرائد والاذاعة، ولدى المحامي، والمدرس، والمؤلف، والوزير، والعمدة، وشيخ الخفر، والكتاب.. كلهم كذابون، والناس، في بلدنا يستمتعون بالكذب، ويرفهون عن أنفسهم.. والحكومة تريد الكذب حسب مصلحتها، وأنا طول عمري ثرثار.. أعني كذاب.. وقد أخذت جزائي، ليس في حياتي قصة لها قيمة.. لم أكن قاتلاً مأجوراً.. ولا عمدة ولا شيخ خفر.. ولا..»[1].

ومع أن «أبو الفتوح» كذاب ولص، فإن وعيه السياسي كما رسمه الكاتب يبدو أكبر من مستواه الثقافي ووضعه الاجتماعي فهو يفكر داخل السجن للخروج من محنته، في السفر إلى القاهرة، والدخول إلى قصر الملك خفية عن طريق الحديقة لكنه وجد أن مقابله «النحاس» باشا، زعيم حزب الوفد أيسر، لم يكن يحب الوفد، وكان يكره أحمد ماهر باشا وحزب السعديين - والكراهية غير معروفة السبب - لكنه بالنسبة للإخوان المسلمين، فكان يرى أنهم

---

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ٩١.

أسمى وأنقى من أن يلوث مجالسهم بأنفاس التبغ والحشيش التي ينفثها من آن لآخر، كان يخاف أن يشموا رائحته، وهو يهابهم ويحترمهم، لأنهم على حدّ تعبيره (من أهل الله)، وعندما يتفضل الله عليه بالتوبة «فسوف يترك الجميع ويذهب إليهم نقياً نظيفاً»[١].

ولعل وعي «أبو الفتوح» السياسي الناضج، الذي صورّه الكاتب، يجد له مسوغاً، إذا عرفنا أن تلك الفترة التي جرت فيها أحداث الرواية، كانت تتميز بالنضج السياسي بصفة عامة، وكانت حافلة بالصراع الحزبي والوطني، وكان وجود الاستعمار الانجليزي يُشعل هذا الصراع ويؤججه، لدرجة أن يصل صداه إلى كل يقعة وكل بيت في الوطن..

ولا شك أن جمعية الإخوان المسلمين كان لها آنئذ حضور قوي في وجدان الكثيرين، وبخاصة في القرى والأرياف، نظراً لطبيعة دعوتها، وما تقدمه من خدمات، ويُعزى تحول «أبو الفتوح» بعد خروجه من السجن، وانضمامه إلى الجمعية، إلى ما قدمته له من مساعدة (إخفائه عن المطاردين له، وتوكيل محامٍ كبير للدفاع عنه) بوساطة الطالب شعبان عبد اللطيف الذي سبقته الإشارة إليه[٢].

---

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ٢٠.

(٢) انظر صفحة ٣٠ من هذا البحث.

لقد صار «أبو الفتوح الشرقاوي» رجلاً صالحاً بعد أن تخلى عن الكذب واللصوصية ويحمل عبء الدفاع عن هوية الأمة وحريتها وكرامتها أو على الأقل ينشد الخير لنفسه، والسلام مع النفس والمجتمع.

المجموعة الثانية (شخصيات نسائية)

وتعدّ هذه المجموعة امتداداً للمجموعة الأولى، وإن كانت تشمل معظم الشخصيات النسائية في الروايات الأربع، وهي شخصيات فاعلة ونشطة وإيجابية بدرجات متفاوتة، وتبرز بصورة ما دور المرأة بوصفها مؤثراً في الأحداث والشخوص.. والجديد هنا أن الكاتب يجعل المرأة ذات حضور اقتصادي واجتماعي، ويتضح ذلك من شخصية «أم صابرين»، امرأة عبد المتجلي، و«براعم» ملكة العنب، وكلتا المرأتين تواجه المجتمع تاجرة أو زارعة وتحقق وجوداً فعّالاً يؤثر في الآخرين سواء باستخدامهم أو التفضل عليهم أو إفادة جموع الناس بإقامة المشروعات أو الإسهام القوي فيها.

وتبدو شخصية «أم صابرين» أكثر غنى فنياً، وثراءً روائياً، بحكم ما شهدته من أحداث وما خاضته من أزمات، كشفت عن طبيعة فكرها، وملامح شعورها.

لقد تعرف عليها «عبد المتجلي» في الميدان الذي سرق

منه «الونش». وهي امرأة ممتلئة عليها مسحة من وسامة، يبدو أنها في العقد الرابع من عمرها، تقف في «كشك» صغير في طرف الميدان، تبيع السجائر والبسكويت والحلوى.. وقد اشترى منها «عبد المتجلي» زجاجة «كوكا كولا»، ودار بينهما حوار خشن.

- من داهية أتيت؟.

- الغربية.

- تعني فلاح.

- لماذا التجريح؟.

- أحب الصراحة.. هل تضايقت؟.

- أعرف أنك تمزحين..»[1].

- ومن ثم تبدأ علاقة تنتهي بالزواج والإنجاب والمشاركة في مسار حياة.. وتخبرنا الرواية أن المرأة لها طفلة يتيمة اسمها صابرين، عمرها ثلاث سنوات، مات أب،ها في حادث طريق وهو يدفع عربة يد ممتلئة بالخضراوات كان يتكسب منها.

---

(١) اعترافات عبد المتجلي، ٣٧.

وبعد ذهابها مع عبد المتجلي إلى «كفر أبو سالم»، تحدث انقلاباً خطيراً في حيات، حيث تقوم بالإعداد لمشروع تجاري، وتقنع زوجها بطريقة عملية ليقبل المشروع، وتسوّق تجارتها في البداية منزلياً، وتكشف عن وجهها «البراجماتي» العملي الذي يتعاكس مع توجه عبد المتجلي «المثالي»:

«- إنك تضعيننا أمام الأمر الواقع.

قالت باسمة:

- إن مرتبك لا يكفي لإطعام البقرة والحمار.

أدرك أنها على حق، فقال:

- ثم ماذا بعد ذلك؟.

- بقي أن نعلن عن افتتاح المحل...ضحك وقال:

- ونطلق عليه «سوبر ماركت» أم صابرين !

- ولم لا؟ أنت موظف ولا يحق لك التجارة»[1].

وبحكم خبرتها أو حسّها التجاري تنمو تجارتها وتتوسع، وتتعامل مع الناس بطريقة حسنة وتكسبهم إلى جانبها، مع التزامها بصورة المرأة المسلمة المحافظة، وقد

(١) امرأة عبد المتجلي، ٧.

جعلها تعاطفها مع الناس ومساعدتها للفقراء «ولية من أولياء الله لصالحين» كما كانوا يشيرون إليها، فقد منحتهم القروض والمساعدات وجاملتهم في المناسبات، وشاركتهم في البهائم وماكينات الري والزراعة وأسهمت في ترميم المساجد والمدارس، ورصدت حافلة للنقل من القرية إلى المدينة والقرى المجاورة، وبنت مقابر للصدقة، ورصدت جوائز للمتفوقين في المدارس وحفظ القرآن الكريم، وقدمت معونات لأصحاب الكتاتيب.. الخ.

وفي مقابل هذا الوجه المشرق، فإنها استطاعت السيطرة على أصحاب القرار في القرية والمدينة عن طريق ما تقدمه من اكراميات وهدايا أو ما يسمى «رشاوى» مقنعة، وهو ما أثار قلق زوجها عبد المتجلي، وأدى إلى مضاعفات غير حميدة من العلاقة بين الزوجين، لأنها من ناحية تصرّ على منهجها الذي يرى الدنيا سوقاً ينبغي أن تتعامل معه بلغة السوق، ومن ناحية أخرى فإن عبد المتجلي يرى المسائل بصورة أخرى تتناقض مع رؤية زوجته:

«العمدة أصبحت رقبته في يدي، وضابط النقطة رهن إشارة مني، ورئيسكم في المجلس القروي كالكلب الذي يقنع بالعظمة بشرط أن يكون فيها بقايا..

هزّ رأسه كأنه ينفض عنه آثار نوم ثقيل:

- هل أصابك الجنون، أم أنك تحلمين؟.

- العالم كله سوق يا عبد المتجلي»[١]

ولا شك أن هذا التناقض بين الزوجين كان سبباً في تدهور العلاقات بينهما، مما أدى إلى الطلاق صحيح أنه جرت محاولات للصلح بينهما، وقد تم بالفعل، ولكن اعتراضات عبد المتجلي انصبت على منهجها وتطور حياتها، فهو يرى المشكلة الرئيسية في تجمع خيوط السلطة في يدها، الإدارة خاضعة لها، وأهل القرية ويطيعونها، بسبب قوتها الاقتصادية وبراعة مسلكها، وهنا مكمن الخطر، لأنها فرد واحد، ولا يوجد ضمان من أن تتحول بين يوم وليلة إلى ديكتاتور، فيخضع الجميع لحكم الفرد المطلق «ولنا الويل إذا حدث ذلك فهي بشر»[٢]... لقد صارت الأمور بهذا الشكل نذيراً بالخطر، وكثيراً ما ألح عبد المتجلي على هذا المعنى: «بنت لي قصراً. أنجبت لي قمرين: منصور ومندور. أغرقتني في المال والنعيم. وأخضعت لإرادتنا القوى المضادة، أصبحت حاكماً بأمرها..»[٣].

---

(١) امرأة عبد المتجلي، ٣٢.
(٢) السابق، ١٠٦.
(٣) نفسه. ١١٢.

إن شخصية أم صابرين القوية وجمعها للمتناقضات (الالتزام الديني والخلقي، مساعدة الناس، بناء القوة الاقتصادية، السيطرة على الإدارة)، لم تسلم من مخاطر هذه التناقضات، وكانت ضحية لها حينما تآمرت عليها «مافيا» السوق، لأنها لم تخضع لإرادة زعمائها، وكانت نهايتها المأساوية الدامية، حيث قتلت في عقر دارها، وتركت أطفالها وزوجها يحصدون المرارة والأسى، لقد انهزمت «لغة السوق» في النهاية، لأنه لا يصح إلا الصحيح، ومهما كان «للبراجماتية» من أسباب ومسوغات، فإن الاستقامة خير وأبقى.

النموذج الثاني الذي يقابل «أم صابرين» مع تشابه فيما بينهما، هو شخصية «براعم» التي أطلق عليها الناس في القرية «ملكة العنب» - على غرار ملكة الجمال - فهي فتاة قروية حصلت على الشهادة الإعدادية، ولم تكمل تعليمها، فقد تحملت عبء استمرار الأسرة بعد وفاة والدها، وقد كافحت وصارت من أمهر زراع العنب في الفدادين التي ورثتها عن أبيها، والفدادين التي تستأجرها من الآخرين، وقد خضع لها احتراماً وتقديراً أهل القرية: العمدة، المجلس المحلي، ضابط النقطة، وهي صاحبة أفضال على الجميع، وقامت بترميم المدرسة وبناء المسجد وفتحت أبواب الرزق أمام الكثيرين.

- وهنا نجد المشابهة بينها وبين أم صابرين واضحة وتكاد تكون متطابقة - وتضيف الرواية توصيفاً لبراعم أو ملكة العنب أنه لم يعرف عنها قط ما يشين سلوكها، وقد حاول الكثيرون خطبتها، ولكنها رفضت، حتى تزوجت الشيخ محمد حسب الله، إمام المسجد في ختام الرواية.

الفارق بين أم صابرين وبراعم أن الأخيرة أقل جسارة في اقتحام المشكلات، وأقرب إلى الاهتمام بدائرة عملها، وأبعد عن المشاركات الاجتماعية غير المحسوبة، ولعل هذا الفارق يرجع إلى نشأتها الريفية المتوجسة الحذرة التي تضع كل اهتماماتها في العمل والتركيز عليه (الزراعة)، أما «أم صابرين» فهي بنت المدينة الجسور المفتحة التي تفهم السوق وألاعيبها (التجارة) وتواجهها بالأسلوب الناجع.. وبالإضافة إلى ما سبق، فإن «براعم» تبدو أقرب إلى الاستجابة للنصح والقبول بالمشورة (نصائح أبو المجد شاهين أثمرت لديها وانتهت بها إلى الزواج)، أما أم صابرين فتبدو معتدة برأيها مع قدرة على الاقناع، ثم صلابة الإرادة والتصميم على تنفيذ الفعل، وكان ذلك من أسباب طلاقها.

إن شخصية «براعم» تبدو إيجابية في إطار البيئة والتربية، بل تبدو في بعض الأحيان معبرة عن أصالة البيئة في النخوة والشهامة التي يتصف بها الرجال عادة، فعندما

اعتقلت السلطات مشيعي جنازة الشاب الذي قتله العراقيون، لم تقف ساكنة، ولم تخش من حالة الخوف والتوتر التي تسود القضية، وذهبت إلى المحامية ذات النفوذ ومنحتها مبلغاً ضخماً بعد أن حصلت على وعدٍ منها بإطلاق سراح المعتقلين، وقد كان..

قد تظهر للقارئ ملامح غنية فنياً لشخصية أم صابرين، أكثر من «براعم»، ولعل هذا يعود إلى أن الشخصية الأولى أتيح لها أن تأخذ مساحة روائية وزمنية أكبر بكثير من «براعم»، فقد تناولها الكاتب على مدى روايتين، بل إن إحداهما تحمل اسمها «امرأة عبد المتجلي»، ولكن «براعم» في كل الأحوال تبدو متناسبة مع الإطار الذي عولجت فيه.

هناك شخصيات نسائية ثانوية، ومع هامشية وجودها الروائي، إلا أنها تسهم في إثراء الحدث وبلورة الشخصية الرئيسية..

فهناك مثلاً «رمانة» أم «عبد المتجلي» وتأمل دلالة الاسم، وتمثل حالة الصبر الجميل على مآسي الحياة وصدمتها، كما تمثل أيضاً حالة الحب الغامر للأبناء، والتبشير بانفراج الأحوال، وانتظار الأمل القادم.

وهناك مثلاً «مِسعّدة» أم «محمد حسب الله» - وتأمل

أيضاً دلالة الاسم - وتمثل ذلك الدأب والرغبة في مقاومة جفاف الحياة، من خلال احتفائها بجاموستها التي تعدها صديقة لها، وتشتبك معها في عراك لفظي، وبخاصة عندما تحلبها، ثم تصالحها بعدئذ، مما يعبّر عن طيبة القلب وبساطة التفكير.

وهناك مثلاً «قطيفة» زوجة «أبو الفتوح» - وتأمل كذلك دلالة الاسم - وهي شخصية حيّة تفيض بالمشاعر والاستجابة لما يجري لزوجها، مع أنها فلاحة بسيطة، ولكنها تفعل ما تستطيع من أجله، بل تغامر ببيع قطعة الأرض التي تملها للإفراج عن، فضلاً عن ذلك فهي مثال للارتباط بالقرية والأرض.

وهؤلاء النسوة يمثلن شخصية المرأة الفلاحة البسيطة، في وفائها وحنانها وعطائها استجابة لفطرتها الإنسانية الصافية.. على العكس من شخصية أخرى مثل «عنايات هانم البحيري» مثلاً، زوجة اللواء الشريجي باشا، فقد تركت زوجها واختفت، ولم تعبأ بقيم الزواج أو تقاليد المجتمع، ولم تضع حساباً لما يمكن أن يقال عن اختفائها أو الشائعات التي ستدور حولها.

ولعل الكاتب أراد في هذا السياق أن يدلل أو يؤكد على أن الإنسان ابن بيئته أو تربيته، وهو ما بدا في القرية حيث

كانت الشخصيات النسائية أكثر وفاء وانتماء لأسرهن، من نساء المدينة.

المجموعة الثالث (الشخصيات الشريرة):

وتمثل هذه المجموعة ما يمكن أن يسمى رجال الإدارة وتشمل العمدة وشيخ الخفراء وضابط النقطة أو ضابط الأمن عموماً، وممثل السلطة التنفيذية، والنائب عن الدائرة، وهي شخصيات تتسم عادة بالاستعلاء واستغلال النفوذ وتحقيق المصالح الخاصة وعدّ الناس معادين دائماً للإدارة، مما يترتب عليه معاملتهم بالقسوة والعنف، وإن وقع بعض شخوص المجموعة نفسها ضحية لهذا العنف وتلك القسوة عندما شذّ عن الإطار المسموح به من قبل الإدارة.

والعمدة شخصية لها حضور مؤثر وفعال، بالنسبة للإدارة والناس على السواء، فالإدارة تلجأ إليه لتنفيذ إرادتها، وهو يلجأ إليها لتلبية رغباته، والعلاقة بينهما علاقة سُرِّية فوجودة مرتبط بوجودها، لذا فإنه لا يستطيع الانفصال عنها أو التمرد عليها إلا إذا أوتي خصائص معينة، ويمكن أن نجد مثالاً لهذا وذاك في عمدة «عبد المتجلي» وعمدة «ملكة العنب»..

عمدة «عبد المتجلي» اسمه الحاج «إبراهيم رضوان»، وهو رمز للقمع، وتنفيذ أوامر الإدارة بتشدد مبالغ فيه،

وقد رسمه الكاتب من الخارج، قدم لنا أفعاله وسلوكه وأقواله، ولم يقدمه لنا من الداخل، وهو امتداد لفساد الإدارة وانحرافها وإصرارها على القمع الشامل الكامل، ويفسر كلام «عبد المتجلي» في المسجد حول السرقة واللصوص، على أنه يدخل في إطار التطرف والحركات الهدامة! بل ينذر عبد المتجلي إنذاراً أخيراً، ويستخدم شيخ الخفراء في تنفيذ إنذاراته وتهديداته، كما يبدو العمدة شخصاً ملتوياً خبيثاً ذا ابتسامة ثعبانية حين يستغل الأحداث الجارية في الترهيب والتخويف:

«- البلد فيه حركة اعتقالات يا عبد المتجلي.. ألم تسمع عنها يا ابني؟»[1].

ويوظف العمدة «إبراهيم رضوان» هذا التخويف وذلك الترغيب، في منع الناس من الكلام مجرد كلام في أي قضية تعنيهم مما يفيد أن القمع مطلب سلطوي يهدف إلى تهميش المواطن وإبعاده عن مناقشة أية مشكلة ذات صلة بالدولة أو الوطن.. مجرد مناقشة.

على النقيض من عمدة «عبد المتجلي» أو «كفر أبوسالم»، يأتي عمدة «ملكة العنب» أو «الربايعة»، وهو الحاج «عبد الشافي وهدان» من أسرة طيبة، يسّر الله له الحج سبع

(١) اعترفات عبد المتجلي، ص١٦.

مرات، ولديه من الأراضي الزراعية والأموال والمواشي ما يكفيه، وأولاده يتولون المناصب المرموقة، وأخوه الكبير - يرحمه الله - كان من ضباط الثورة، وهو عادل محترم من الجميع، ولا يتردد في القسوة عند اللزوم كي لا يفلت الزمان، ولكنه يتحرى الحقيقة تحت أي ظرف من الظروف.. قضى بضع سنوات في الأزهر، ولم يكمل إلا الابتدائية.

عندما داهمت قوات الأمن جنازة قتيل العراق، وقبضت على الناس، أعلن استقالته بلا تردد، واحتج على ما فعله الضباط والجنود دون مسوغ مقبول، وقد طلبت منه الداخلية البقاء في منصبه حتى تستقر الأوضاع.

إن الحاج عبد الشافي، بالنسبة لغيره نشاز، أو استثناء من القاعدة فالرجل لديه أساس ديني تربى ضميره عليه، وعنده أساس اقتصادي يمنعه من مدّ يده أو قبول الرشوة، ويملك أساساً اجتماعياً يتمثل في أسرته المعروفة وشخصيته القوية، وكلها عوامل تجعله يختلف عن العمدة السابق الذي يمثل سمة عامة لأغلب العمد.

وقد تعمق الكاتب شخصية الحاج عبد الشافي، فرأيناه، وهو يتفاعل مع الأحداث، ويخوض غمارها بالعقل الناضج والتفكير الصائب، وينفعل نتيجة الظلم الذي أصاب أهل الربايعة وهم يشيعون قتيل العراق، ثم نراه وهو

يفضي بداخله إلى زوجته عما يلاقيه من عنت الإدارة والناس، ويعلل لأسباب قراره بالاستقالة.. الخ.. ومع ذلك فقد رأيناه لا يتورع عن استخدام القسوة عند اللزوم حتى لا تفلت الأمور، كما سبقت الإشارة.

إن العمدة بصفة عامة يبدو في روايات الكيلاني شخصية ذات أهمية، لأنه عادة - باستثناء عمدة كفر الربايعة - وكيل للإدارة في ممارسة القمع.

وتأتي شخصية «شيخ الخفراء» مكملة لشخصية العمدة، بل هي جزء منها، ومثال ذلك شخصية «عتيق» شيخ الخفراء، الذي قام بإحراق بيت عبد المتجلي من قبل المافيا المتحكمة في السوق، انتقاماً من أم صابرين. وشيخ الخفراء بصفة عامة، يعدّ يداً غليظة في جسم العمدة تنفذ إرادته، وتلبي أوامره، وإذا تباطأت أو انحرفت فالويل لها! ويبدو أن الكاتب جعل من شخصية «عتيق» رمزاً يشير إلى تسخير المافيا المتحكمة في السوق والسياسة، رجال الإدارة لحمايتها، وتنفيذ عملياتها الانتقامية ممن تغضب عليهم، في مقابل تخليها عن دورها الأصلي في حماية الأمن القومي الداخلي.

أما شخصية الضابط، فهي سلبية بصفة عامة، ومرسومة من الخارج، أي جاهزة ولا يستطيع القارئ أن

يعرف ما يدور بداخلها، مع أن هناك نماذج من الضباط تزخر بالعاطفة الإنسانية حتى لو استجابت لما يفرض عليها، إن الصورة العامة للضابط في الروايات الأربع تفيض بالبشاعة والقبح، فضابط النقطة في القرية يأخذ الرشوة من تجار المخدرات ليتستر عليهم، وله حق معلوم عند التجار وأصحاب الحاجات ولا تسلم تصرفاته من الظلم والفساد، وتشتريه «أم صابرين» بالهدايا.

أما رجل الأمن، فهو الجلاد الذي يرغم ضحيته على الاعتراف بعد التعذيب لوحشي الذي لا يقره دين ولا عرف ولا قانون، ومواصفاته: طاعة الأوامر، وعليه أن يكون ذا خيال واسع وقدرة على الابداع، أنه في ذلك شأن الفنان الموهوب، فإذا لم تكن هناك قضية فعلية فعليه أن يخترعها وإذا كانت صغرة فواجبه أن يبرزها في ثوب من الخطورة والإثارة، والهدف من ذلك كله شغل الرأي العام بقضية لها وزن وأبعـــاد، وبثّ الرعب في قلوب الذين يفكرون في المعارضة أو الانقضاض على السلطة![1].

وإذا كان رجل الأمن في الروايات رمزاً للفساد والقهر، فإن رجل السلطة التنفيذية لا يقل إفساداً وقهراً وأوضح النماذج له شخصية «أحمد علام» رئيس المجلس القروي

---

(١) ملكة العنب، ٥٥.

بقرية « الربايعة»، فهو منحرف، مستغل للسلطة، يأخذ الرشوة لا يحل مشكلة إلا إذا تقاضى الثمن، ثم هو بعد ذلك يجيد فن الإنشاء والتزييف والنفاق «إنّ ما يهمنا أولاً هو أمن البلد وتلاحم الحزب مع الجماهير، وأخوف ما أخافه أن يكون وراء ما يحدث الآن تدبير خبيث من المتطرفين والإرهابيين (تعليقاً على موضوع إخراج زكاة العنب). وقضية الزكاة حضرات الأعضاء مسألة شخصية (!!) بحتة، وعلى كل فلاح أن يختار الفتوى التي تروق له (!!)، وياويل من يعبث بأمن البلد»[1].

وفي الوقت الذي ينفعل فيه الحاج عبد الشافي عمرة الربايعة نتيجة لمداهمة قوات الأمن لجنازة قتيل العراق ويحتج، فإن «أحمد علام» يؤيد إجراءات العنف التي اتخذتها الحكومة ويدعو أعضاء المجلس إلى الانتشار بين الناس، وتجميع الأخبار عنهم أولاً بأول (جستابو!)، والإبلاغ عن أي معارض للحكومة بوصفه إرهابياً يجب القضاء عليه، كما يؤيد موقف الحكومة (المتخاذل) في مسألة القتلى المصريين بالعراق، والقبض على البلد ومنهم أبو المجد شاهين ومحمد حسب الله.

ويعلق على عنف السلطة ضد الناس في الجنازة عند

---

(١) السابق، ١٥.

الاجتماع الدوري للمجلس قائلاً:

«- بلد لاتمشي إلا بضرب الحذاء.

فيرد عليه أحد الأنصار:

- صدقت ورب الكعبة»[١].

وعلى نهج شخصية أحمد علام، تأتي شخصية النائب في المجلس التشريعي، وهي شخصية باحثة عن المصلحة الذاتية (لا الشعبية)، وتستغل النيابة في الكسب غير المشروع، وتقدم لنا رواية «ملكة العنب» شخصية المحامية «سعاد الدباح» النائبة عن الدائرة أو عضو مجلس الشعب مثالاً جيداً كان أبوها أكبر جزار في المدينة، ويحسن التفاهم بالسكين، قيل عنها أنها «واصلة» إلى أبعد مدى، ولها علاقات وطيدة بالكبار، ويروون عنها أنها تُدخل الطالب كلية الشرطة أو الكلية الحربية نظير عشرة آلاف جنية، ٨وأنها استطاعت بنفوذها إنقاذ عدد من تجار المخدرات الذين قبض عليهم متلبسين، لا ببراعتها في الدفاع عن النفس، ولكن بأساليب وحيل لا تمت إلى ذلك بصلة، وأنها استطاعت أن تنقذ فتاة عابثة من المحاكمة بعد أن دهست بسيارتها شابين بريئين ماتا على الفور..[٢].

---

(١) نفسه، ٥٣.

(٢) ملكة العنب، ٨٦، ٨٧.

وقد لجأت إليها «براعم» لتنقذ المعتقلين وتخرجهم من السجن، وقد فعلت بعد أن دفعت إليها مبلغاً ضخماً من المال، وذهبت إلى القرية مع المفرج عنهم في موكب مهيب!.

ولا شك أن هذه الشخصية الوصولية المرتشية تتسق مع الوضع العام الذي يحارب التدين والمتدينين، ويضعهم في خانة «التطرف والارهاب»، وتجد هذه الشخصية وأمثالها مجالاً رحباً للنمو والانتشار في كافة المجلات، طالما كانت على ولائها للحكومة.. أما إذا انحرفت قيد شعره، فإن التنكيل يكون من نصيبها، وهو ما حدث مع عبد السميع بك الطناحي «نائب الدائرة الذي يدعي أنه مستقل، وقد أيده الناس كراهية في حزب الحكومة وتصرفاته وضيقاً بعجز الأحزاب السياسية عن القيام بواجباتها.. فقد جاء إلى الربايعة بسيارته المرسيدس ونظارته السوداء عندما علم بما جرى في جنازة قتيل العراق، وعقد اجتماعاً في المسجد ليشجب سياسة القمع واستنكار تصرفات العسكر، وكانت النتيجة أن جرّه ضابط إلى خارج المسجد في استهتار واحتقار، ولم تشفع له حصانته البرلمانية، بل كال له الصفعات والركلات، والعسكر يفعلون مثلما يفعل ضابطهم!.

وهكذا يبدو رجال الإدارة بصفة عامة، في صورة غير طيبة، بل شريرة في أحيان كثيرة، تسعى إلى تحقيق مصالحها الخاصة على حساب القيم والأخلاق والناس،

ولعل الكاتب أراد بتقديمها مسطحة أو من الخارج، أن يقول لنا إنها نماذج سائدة ومنتشرة بكثرة، بحيث لا تحتاج إلى استبطان أو حفر داخلي.

المجموعة الرابعة (شخصيات ثانوية)

وتضم هذه المجموعة عدداً من الشخصيات الثانوية التي لعبت دوراً مهماً في توضيح القصة، وكان وجودها ضرورياً في بناء الروايات مع قصر دورها أو تواضعه، ذلك أنها أثرت في الأحداث ومجرياتها، وألقت بأضوائها الكاشفة بصورة أخرى على الشخصيات الرئيسية[١].

وأبرز الشخصيات الثانوية شخصية الحاج «يونس عبده»، وهو عامل التليفون في دوار العمدة، وهو غريب مثير يجمع بين الصلاح والطلاح، والصدق والكذب، والوفاء والخيانة. إنه شخصية متناقضة تجمع الأضداد، ويسميه بعض الناس في القرية إبليس، والبعض الآخر يرى أنه داهية وذكي.. فهو ناحية أخرى. كما تردد الشائعات - يشتغل مرشداً أو مخبراً للمباحث، ويتقاضى على ذلك أجراً إضافياً، وهو على استعداد لأن يشي بأي إنسان حتى لو كان من أعز أصدقائه، ويعزى إلى يونس تلك الهجمات البوليسية على أوكار السوق السوداء والحشاشين وحائزي

---

(١) انظر: فن القصة، ٤٦.

السلاح، بل قيل أيضاً إنه أرسل شكوى من مجهول يدع فيها أن العمدة له حصة من التموين يأخذها ظلماً وعدواناً من أقوات المساكين.. مع أن العمدة من أبناء عمومته!.

والحادثة المؤكدة أنه خدع «قطيفة» زوج «أبو الفتوح الشرقاوي»، واستغل لهفتها من أجل إخراج زوجها من السجن، وجعلها تبيع أرضها دون أن تقبض ثمنها، زاعماً أنه ثمن الأرض يذهب إلى المحامي الكبير الذي وكله للدفاع عن «أبو الفتوح»!.

وكان «يونس عبده» من الأذكياء الذين يعرفون كيف يشغلون الناس، ويسربون الشائعات ليحقق أغراضه الخاصة أو يشغل الناس بعيداً عنه، وقد أعلن مثلاً رأيه من الحادثة التي اتهم فيها أبو الفتوح الشرقاوي فقال: يبدو أن الجريمة وراءها دوافع سياسية»[1]. وكانت نتيجة هذا الرأي أن ثار اللغوّيون المثقفون من أبناء القرية والأزهريون خاصة، وسماسرة الانتخابات والأحزاب السياسية..

وهكذا تبدو شخصية «يونس عبده» مثيرة وحية ومحركة للأحداث في الرواية حتى انتهى بها المطاف إلى السجن.. بيد أن الكاتب لم يقدم لنا تعليلاً أو تفسيراً لتناقض شخصية «يونس عبده»، وترك لنا التخمين والحدس.. فهل كانت معرفته المحدودة بالقراءة والكتابة،

---

(١) قضية أبو الفتوح الشرقاوي، ٢٩.

ثم طموحه للغنى والثراء، والتطلع إلى أعلى، ورغبته أن يكون محط أنظار الجميع ومثار اهتمامهم بحكم أنه حلقة الوصل بين الإدارة والعمدة أو مكمن الأسرار بينهما، من وراء تناقضاته؟.

الإجابة ممكنة، ولكننا كنا نطمح أن تكون من خلال الرواية.

ومن الشخصيات الثانوية الحية في الروايات، شخصية «الراعي كشكل» في رواية «ملكة العنب»، وهو حشاش مخضرم، يعلق على الأحداث بمفهوم الحشاشين، ويطلق التخدير عقال لسانه فيقول كلاماً مالا يقوله العقلاء الذين يحذرون العواقب، ويأتي كلامه شبيهاً

بالحكم الممتزجة بالسخرية، ويستطيع أن يختزل أعقد القضايا التي تشغل المجتمع في عبارات قصيرة أو جمل مكثفة تثير الابتسام وتذكر بالقهر في آن واحدة. ولعلنا نستطيع أن نستشف شيئاً من ذلك في الحوار التالي في إحدى الجلسات التي شهدها الراعي كشكل:

« .. قال أحد المساطيل للراعي كشكل:

- إذن فأنت قتلت السلاموني، أو على الأقل تعرف من قتله..

قال الراعي وهو ينحي النرجيلة بعيداً:

- بالتأكيد أعرف..

صوبوا إليه عيونهم وقالوا في صوت واحد:

- من!

- الشيخ محمد ح٨سب الله..

- مستحيل.

- ولم لا؟ إنه يطبق شرع الله..

- وهل يقتل من يسرق بضعة كيلو جرامات من العنب؟..

- لا تسألوني.. أسألوا الشيخ.. وبالنسبة لي فأنا أؤيد تحديد النسل.. وإلا قطعت أمريكا عنا المعونات...»[1].

ويستدعي الكاتب شخصية الحشاش كشكل، لتكشف عن جوانب سلبية في أجهزة الأمن والنظام الحكومي، حيث يستجيب لما يُطلب منه من جانب الضابط المحقق، وهو في هذه الاستجابة يقول لنا بطريقة غير مباشرة: إن الظلم الذي تمارسه السلطة لا مرد له، وأنه لا قبل للناس بمواجهته، وأنه من الأولى الاعتراف - كذباً بالطبع - أن الحكومة دائماً على حق، وأن تلفيق القضايا والتهم للأبرياء حق! إنه في كل الأحوال يدين السلطة بطريقة معكوسة حتى لو بدت هذه الطريقة نوعاً من الهزل، كما حدث عند التحقيق معه.

---

(١) ملكة العنب، ٣١.

وإذا كان التحشيش يظهر الراعي كشكل في حالة من عدم المبالاة الساخرة، فإن الكاتب صنع له جوانب مأساوية كي تكتمل صورته الحية، فنراه يعشق زوجة «مصطفى السلاموني» الثالثة، يتآمر معها لقتله، وينتهي به المطاف إلى المحكمة والسجن!.

لقد استدعى الكاتب مجموعة من الحشاشين في رواية «اعترافات عبد لمتجلي»، وقد أطلعنا على لغتهم وأفكارهم، وهي لا تختلف كثيراً عن لغة الراعي كشكل وأفكاره، فلماذا الإلحاح على استحضار الحشاشين في أكثر من رواية؟ هل يريد الكاتب أن يخبرنا أن فريقاً من الشعب ينسحب إلى عالم المخدرات ليغيب عن المعاناة والعذاب والضيق والآلام التي تعي حياة المجتمع؟ أم يريد أن يُجري على ألسنة الحشاشين السلبيات التي تعشش في أركان الوطن من خلال جو ساخر؟ أم يريد القول إن الغياب عن الوعي والفساد الاجتماعي صنوان مقترنا؟ لعله يريد هذا كله، ولكنه من وجهة نظري أراد أن يثري حيوية النص الروائي بتلك النماذج التي تخلط الجد بالهزل، والسخرية بالابتسام، وتقول مالا يقوله العقلاء..

ولعله يلحق بهذه الطائفة من شخصيات الحشاشين، شخصية الأفاقين، وإن كانت غير واضحة الوضوح الفني

الكافي، وإن كانت تشكل في حد ذاتها معلماً مهماً في السياق الروائي، ولعل شخصية «عوض العوضي» في «ملكة العنب» مثال على ذلك.. ويمكن أن نجد له مقابلاً في بعض روايات نجيب الكيلاني الأخرى، ولعله يتماثل في سلوكه مع شخصية نمطية في الرواية العربية، وتمتد جذورها إلى ما قبل عقود، لعلها تبدأ بشخصية «حمادة الأصفر» في رواية «أنا الشعب» كتبها «محمد فريد أبو حديد». ولكن يلاحظ أن شخصية الأفاق عند نجيب الكيلاني تملك فطرة خيّرة مع ما يشوب صورتها الخارجية من مظاهر شريرة، وكأنه يريد أن يقول إنها لم تجنح إلى الشر بطبيعتها، ولكن الواقع والظروف من وراء ذلك.

بيد أن هناك شخصيات شريرة بطبيعتها مناظرة لشخصية الأفاق، محترفة للشّر ومغموسة فيه، وهنا شخصية قدمها الكاتب في رواية «امرأة عبد المتجلي» تمثل هذا النمط تمثيلاً جيداً، وهي شخصية «الورداني ربيع» من «كفر الصقور»، وهو سمسار أراض، وتاجر مخدرات ومواشٍ، ومن رجال السياسة المحليين[1]، ويُستأجر من قبل المافيا التي تحكم السوق للقيام بالعمليات القذرة، وقد أغوى شيخ الخفراء «عتيق» لإحراق بيت «عبد المتجلي» نظير ألف جنيه.

---

(١) ملكة العنب، ٣١.

إن الشخصيات الثانوية تلعب دوراً مهماً في الغالب لكشف جوانب مبهمة من الشخصيات الرئيسية أو الأحداث، وكثير منها لا يمكن الاستغناء عنه أو حذفه، لأنه يتمتع بالصدق والحيوية القصصية.

وبصفة عامة يمكن القول إن الكاتب أعطى لشخوصه لمسة الحياة الفنية، سواء كانت شخوصاً رئيسية أو ثانوية.. وسواء كانت نامية Round تتكشف تدريجياً وتتطور بتطور الحوادث أو مسطحة Flat تحمل فكرة واحدة أو صفة لا تتغير على مدى الرواية.

ولأنها شخصيات إنسانية حيّة، فقد حملت بذور الفطرة الإنسانية في حالات توهجها البشري وانطفائها الطبيعي.. ولذا رأينا شخصيات خيرة تضعف أحياناً أو يصيبها الضعف والوهن أمام قسوة الواقع والظروف، وشخصيات غير خيرة، وتتحول إلى شخصيات خيرة، وتبعث مما في داخلها من فطرة سوية لتلحق بركب الأخيار.. أما الذين فسدت ضمائرهم، وماتت قلوبهم، فإنهم يظلون على منهجهم حتى يلحقهم الطوفان.

لا شك أن خبرة نجيب الكيلاني أو عمره الطويل في الكتابة الروائية، كان من وراء تلك الشخصيات التي استوت ناضجة في الغالب من خلال واقعيته الإسلامية.